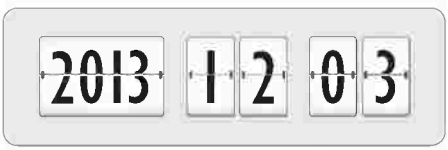

بدأت هيلاري تقول: أقدر أن علي أن أحدثك قليلًا عن السنوات الآركنسوية.

بكل تأكيد، إذا كانت تلك هي ما تريدين أنتِ الكلام عنها.

أنا من النوع الملزِم كما تعلمين؛ لا أريد إهمال أي شيء ذي أهمية.

أومأت موحية بأني أفضل أن تتكلم عفويًّا، غير أن تلك ليست طريقة هيلاري كلنتون.

قالت: السنة الأولى من تولي بل لمنصب الحاكم كانت حقبة خاصة من حياتينا؛ كانت قد وظفتني ثانية أكبر المؤسسات الحقوقية الآركنسوية المعروفة باسم روز، ناش، وليمسون، كارول، كلاي، وجيروار، ومكنتني من أن أكون شريكة وأنا لم أتجاوز الثانية والثلاثين من العمر بعد. كان ذلك انتصارًا لافتًا بالنسبة إلى امرأة، ولاسيما بهذه السن الصغيرة؛ لأن المؤسسة كانت معروفة بكونها قوة تعاونية وذات ارتباط بالمال القديم. كان فينس فوستر، أحد أصدقاء بل، قد جندني. أصبحنا صديقين عزيزين، مع أن صداقتنا، ربما تعلمين، كانت ستتمخض لاحقًا عن إحدى مآسي حياتي الكبرى، غير أن ذلك سأحدثك عنه في وقت آخر.

فكرت: بالطبع سوف تحدثينني عن ذلك في موقعه التاريخي المناسب.

على وجاهته، لم أكن أرى منصبي في مؤسسة روز الحقوقية إلا وظيفتي النهارية، كنت أعمل في المؤسسة لحاجتنا إلى المال في المقام الأول – كان راتب حاكم آركنسو ضئيلًا. في سائر الأوقات السابقة لانتخاب بل رئيسًا للجمهورية، كنت أنا معيلة العائلة، كاسبة رزق الأسرة. إلا أن قلبي كان متركزًا على برنامجي الخاص الذي تمثل– كما على الدوام– بتحسين حياة النساء، والأطفال، والمبتلين بالفقر. كنت استثنائية الاهتمام بمعاناة الأطفال المهملين والمتعرضين لسوء المعاملة. كنت أرى ترابطًا بين سوء المعاملة التي عانتها أمي وهي طفلة من ناحية والأمور المخيفة التي كان بعض الآباء والأمهات يمارسونها مع صغارهم من ناحية ثانية، أردت أن أكون صوت أطفال أمريكا، وبمساعدتهم كنت أحاول– رمزيًّا–، تصويب طفولة أمي الرهيبة.

تأثرت برؤيا هيلاري، وفكرت: مفاجأة! وصلنا إلى مكان معين بالفعل!

تابعت هيلاري: أقمت عيادة إسعاف حقوقي في الجامعة التي كنا بل وأنا ندرس فيها، وكنت أعود جوًّا إلى واشنطن كل بضعة أسابيع لحضور اجتماعات مجلس صندوق مساعدة الأطفال، كذلك كسبت مبالغ كبيرة في سوق السندات والأسهم، مقامرة بألف دولار في الرهانات الخطرة على سوق الأبقار المستقبلية التي أكسبتني بسهولة مبلغ عشرة آلاف دولار مع حلول نهاية العام. من المؤسف أن الصفقة كانت ستعود لتصفعني لاحقًا، رغم أني لم أقترف أي خطأ.

يجب أن تكون نظراتي قد أوحت لهيلاري بشيء من الشك لأنها اعترضت قائلة: ربما قرأت عن الموضوع يا دكتورة، ولكنني أقسم لك بأنني كنت مستقيمة مئة بالمئة، ولا يعدو الأمر كونه مسألة حظ مؤات.

أومأت. ومن أكون كي لا أصدقها؟ بمقدار ما أعرف كانت بالغة الاستقامة معي إلى الآن.

مشروعي المدلل وأنا سيدة آركنسو الأولى كان إصلاح التعليم، الذي أصبح الإنجاز المزين بتوقيع الحاكمية الكلنتونية. فيما كنت أدرِّس القانون بجامعة الولاية، ساءني المستوى التعليمي المتدني لأهل آركنسو؛ كان الطلاب بحاجة إلى ما هو أفضل بكثير مما كانوا يحصلون عليه إذا كانوا سيتمكنون من بناء أي حياة محترمة لأنفسهم. طالبت بإصرار أن يحصلوا على تشكيلة أوسع من الموضوعات، على فرص أرحب للاطلاع على الفنون والعلوم، وعلى أعداد أكبر بكثير من المنح الداخلية. توصياتي جميعها بلا استثناء جرى تبنيها آخر المطاف، ثم أطلقت برنامجًا صيفيًّا للموهوبين في السنة الثانوية الأولى، صُمم على غرار برنامج جامعة الحياة التي كنت قد التقيت فيها مارتن لوثر كنغ، الابن، وأسهمت في تمكيني من تشكيل أهدافي الحياتية. أعداد من أولئك الطلاب يتصلون بي منذ ذلك التاريخ معبرين عن الشكر كما عن مدى تأثر حياتهم نحو الأفضل بتلك البرامج، فيشعرني ذلك بالارتياح، أتذكر أنه خطر لي أنني قد كسبت مكانًا لي على كوكب الأرض، وإن لم أنجز أي شيء آخر.

أشرقت هيلاري. أنا أيضًا ابتسمت وهنأتها.

تابعت هيلاري: أيضًا عينني بل رئيسة للجنة الرعاية الصحية الاستشارية التي شكلها، كان قد اصطدم بمشكلات في مدته الأولى حين عين مسؤولًا صحيًّا من خارج الولاية اقترح تمكين ممارسي التمريض وممارساته من الاضطلاع بمسؤوليات الأطباء في المناطق المفتقرة إلى الأعداد الكافية من الأطباء. الجمعية الطبية في الولاية أثارت ضجة صاخبة حين علمت أن أرباحها الدسمة من المساعدة الصحية سيتم التهامها من قبل ممارسين عاديين. عينني بل لحل مشكلة توفير الرعاية الصحية لأفقر النواحي في الولاية من دون أخذ أي بنس من جيوب الأطباء. وظفت علاقاتي الواشنطنية – حك لي، أحك لك! – للحصول على أموال اتحادية لدعم الرعاية الصحية الريفية في آركنسو. نجح المشروع. تم افتتاح أربع عيادات ريفية مباشرة، انطلقت أعمال البناء لإنشاء ثلاث أخرى، وسُمح للقابلات والممرضات والممرضين الممارسين بالعمل.

عندما أشعر بأي كآبة، أتذكر الأشياء الجيدة التي كنت قادرة على القيام بها خدمة لأهل آركنسو، فأنتعش.

قلت: معك الحق كله أن تكوني فخورة بنفسك. يبدو أنك أسهمت كثيرًا وأنت في سن مبكرة.

نظرة فرح أضاءت وجهها. حتى السيدة الأولى، أي سيدة أولى، بحاجة إلى نوع من الإطراء بين وقت وآخر. قالت: بدأت أشتهر بوصفي مصلحة اجتماعية على النطاق القومي. ثم استأنفت بعد لحظة استساغة للمديح: سمع الرئيس جيمي كارتر عني وعينني عضوًا في هيئة الخدمات الحقوقية المستقلة، تلك الهيئة المؤلفة من محامين فاعلين سياسيًّا والمكلفة بتوزيع الأموال على البرامج القائمة على توفير المساعدة الحقوقية للفقراء. سرعان ما انتخبت رئيسة لمجلس الهيئة. شيء يفضي إلى آخر، إذا جاز استخدام الصيغة المبتذلة، وتعييني للتعامل مع الاتهام الفضائحي لرئيسنا ريتشارد نكسون، جاء على الطريق. لن أغوص في الأمر بعمق، سأكتفي بقول إنني كنت أمقته في ذلك الوقت. كنت أرى أنه إنسان شرير ولم أكن أشك بوجوب توجيه الاتهام إليه. سيبقى منبع سعادة لي أنني كنت ناجحة في المساهمة على ذلك الصعيد.

لم أصرح، غير أنني كنت سعيدة بسماع ذلك. إضافة إلى كوني محللة سيكولوجية، أنا إنسان يتصادف أيضًا أنه يحتقر نكسون ويستطيع يقينًا أن يعذر على رد فعلي المفرط في إنسانيته.